لغة الإدارة العامة
في صدر الإسلام

عبد السميع سالم الهراوي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

لغة الإدارة العامة
في صدر الإسلام

عبد السميع سالم الهراوي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

الاخراج الفنى : سمير مصطفى

المراجعة والاشراف الفنى : عفاف توفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تنتظم الادارة العامة جماع الأنشطة التى تمارسها أجهزة الدولة باسم المجتمع كافة ، اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية ، وما ينبثق عنها من مرافق ومؤسسات وهيئات عامة .

ولما كانت اللغة هى المقول المنطيق تعبيرا عن ارادة هذه الأجهزة . كانت المرآة المجلوة الشفيفة ، للنشاط الادارى ثم لمبلغ القائمين بها من التمرس فى الادارة وحظهم من الثقافة وسعة المدارك وسلامة التعبير ، والتمكن من المهارات الأساسية للغة ، وهم ـ عادة ـ عنوان المجتمع وصفوة ما أنجب من مستويات ثقافيـــة .

فلئن كانت اللغة ـ بوجه عام ـ هى المجاز الرحب بين خوالج الفكر وبين مراح الحياة ومخاوض الرأى ، فهى ـ كذلك ـ الترجمان المعبر عن ارادة الدولة وسياستها فى أجهزتها ، مثابة الرأى ومناط التدبير للمجتمع .

فلغة الادارة العـامة على هـذا الاعتبـار أجلى مقومات الدولة وأنصع معالمها القومية ، لأنها ـ من وجه ـ لسان السلطات العامة المعبر عن مشيئتها ومناهجها فى سياسة الحكم ، وهى ـ من وجه آخر ـ أداة التفاهم والتعامل بين المواطنين وبين السلطات الحاكمة .

فهى بهذا ، الطاقة المحركة لدولاب العمـــل الادارى والحفيظة على قيمه والسجل الحافل الوثيق للتاريخ القومى وما استشرفت الدولة من شـــأو فى مارج الحضارة ، والمرقب الثاقب الذى يستشف من الدولة شخصيتها الرسمية

وكيانها القومى معا ، لما أنها تتصل بسلطاتها التنظيمية وبشعبها الذى يتعامل معها والذى تسوسه وتمارس من خلاله سلطاتها العامة ٠

فاللغة فى قوامها وأسلوبها صنيعة مطواعة للبيئة الحضرية التى صاغتها وأساغت منطقها ، وأضفت عليها قسماتها المميزة ، ثم هى لسان بين للمظاهر الحسية والنفحات الذهنية تتكيف معها ولا تريم عنها ولا تمين ٠

كالحلوب ، يدر ضرعها من دسامة القوام ووفرة الكم كيفما انتجعت وحسبما أمرعت أو أمحلت ٠

وبهذا المنظور الجلى نعالج التاريخ العام للدولة العربية فى صدر الاسلام من خلال التراث المتواتر من النصوص الرسمية ، كما نعالج متن اللغة فى ذاتها فى مواكبتها للمسيرة الحضرية فى ضوء الملابسات التاريخية التى وسمتها بميسم متميز ، والمناشد التى توختها وعبرت عنها ، وهى حصيد مزدرعات شتى أمشاجا صنوانا وغير صنوان ، ترجع فى تكوينها وتطورها وصقلها الى أسباب مشتجرة ألفافا ، وأصول متعاصرة وغير متعاصرة ، وأنماط ذاتية وجليبة ، قد يتقادم بها العهد وتوغل فى متاهات التاريخ ، وأضحى من المتعين استظهارها وسبر أغوارها وتمحيص عناصرها ، مقتضاها ومؤداها ٠

ولقد تطلب استيعاب العناصر التى صاغت اللغة العربية التماس مقوماتها فى مظانها القصية والدنية ، الأصيلة والطارئة ، ودراسة لهجاتها وعلاقاتها الدولية ، ومقاولاتها فى معاملاتها الخاصة والعامة ، على المستويين المحلى والدولى كليهما ، حتى نجمع من حصيلة هذا كله مقومات اللغة العربية فى قوامها الراهن الرصين ٠

ولقد انتهجت فى استيفاء أشطر البحث الاستعانة بالنصوص المأثورة عن كل حقبة عرضت لها بالتحقيق ، وكل منحى تناولته بالتحليل والمدارسة ، لتبيان أسلوب اللغة ومنحاها ، وما عبرت عنه من أغراض ٠

وقد أبث هاتيك النصوص فى تضاعيف البحث وثنيات المقال ، معالم ثرية على منهج الدراسة ، دون ايماءة مميزة تبتغى التنويه بها كشواهد لغوية ونماذج مقصودة ، استشهد بها على مستوى اللغة فى ذات الموضوع الذى أعالجه٠

ذلك لأن مناسبة مساقها لاتخفى على فطنة المتابع للبحث ، وحتى أتيح له ان يسيغ مذاقها ويستمرىء عناصرها متكاملة مع وجبة الدراسة ، وحتى يتبدى البحث ممتزجا بأقيسته وشواهده لتكون أدنى الى الفهم واستظهار القصد من السياق ٠

فالنصوص والوثائق الرسمية هى العمدة فى دراستنا ، وهى الذخر الذى نستنبط منه السياسة العامة للدولة ، والمسبار الذى تقوم به الثقافة العامة فى مجتمعها ، والمستوى اللغوى بخاصة ، لفظا وأسلوبا ومضمونا ٠

***

وبعد ، فهذه اضبارة حافلة بالوثائق والنصوص المسطورة والمقولة ، قدسية وغير قدسية ، معالم مضيئة تجلى مدارج التعبير العربى منذ انبعاثه ، ومنذ أن تهيأ قوامه لاستيعاب عناصر التكامل اللغوى من جماع مجانيه . من شتى اللهجات العربية وشتيت المصادر الأعجمية ، حتى اكتملت مقوماته وتوحدت فى اللهجة القرشية المطورة لغة قومية خلدها القرآن الكريم وغدت نبراسا يستهديه الناطقون بالعربية أبد الدهر ٠

كما تهيىء تلك الوثائق اطلالة ثاقبة على حقبة زاخرة من التاريخ الاسلامى العريق لحقبة رخية من التاريخ الانسانى التليد ، منطلق آفاق رحيبة ممرعة ، ومبعث عصر انسانى وضىء ، منذ انبثاق الدولة الاسلامية فى أجواز الصحراء شطأ غضا حتى استوى على ساقه وأعرق واستغلظ ، دوحة فناءة باسقة تستذرى بأفيائها الوريفة مناكب الشرق الأوسط ، وحتى استحالت رحابها الفيحاء فى أعقاب الفتوح المظفرة روضة أريضة معطيرة ، يتضوع فى ربوعها الندية أريج روحانى فتيق ٠

وحيث تتشوف تلك الاطلالة من خلال سلطات الدولة المتناصرة الى الدستور الذى يهيمن عليها وتتقفاه ، والنظم الادارية المتطورة التى انتهجها الرعيل المتقدم من الرواد الاداريين وساسوا بها ذلك المشيج المتباين من الشعوب والحضارات التى اجتازها العرب وانضوت تحت لوائهم ٠

كما تستشف من خلال المناهج الادارية والقوانين العامة ودواعى اشتراعها ، سمات واضحة للمجتمع آنذاك ، وما وقر فى أخلاده من قيم وأعراف وتقاليد ، مطبوعة أو مصنوعة ، أصيلة أو دخيلة ، وما درج عليه من سلوكيات متآلفة ومتخالفة ثم تتوسم أنماط التعبير اللغوى الذى ساسها وقنن مناهجها وأحكامها ، وعالج انفعالها وتفاعلها ، والمستويات الادارية التى ندت عنه ، حاكمة ومحكومة ، متنا وصياغة ، فقها وأسلوبا وأغراضا ٠

***

وفضلا عن ذلك ، فلقد توخيت فى خلال هذه الدراسات والبحوث أن أعالج طائفة من الأقضية التى تهم المسلمين والمعنيين بشئون الاسلام ، وتدخل فى نطاق بحثنا ، والتى قد تكون معتاصة على ادراك المستشرقين وهدفا لهمزات

المرجفين منهم بالباطل ، الذين استغرق الهوى المعتل أفهامهم فاستغلقت من دونها وعز عليهم فهمها ، وتناولوها بالتأويل المريب ، واتخذوا منها مطاعن للاسلام ، فأميط عن وجه الحق غواشي اللبس والمفاهيم المغرضة ، وأصوب ما سيء تأويله وتخريجه عفوا أم قصدا ، حتى نستجلي ما تشابه من المعانى التى استخفت على الدراسة المبتسرة والفهم القاصر ٠

***

والله المستعان ولى التوفيق ، سبحانه العليم فوق كل ذى علم ، له جماع الفضل والمثة بما أفاض على فيما عساى أصبت ، وأخصه بالحمد الغمر براعة استهلال ، والشكر المنيف مسك ختام ٠

عبد السميع سالم الهبراوى

الباب الأول

حالة العرب قبل الاسلام

الفصل الأول : **الحالة السياسية**

الفصل الثانى : **اللغة العربية**

الفصل الأول

الحالة السياسية

فى مستهل العصور الوسطى ، قبيل البعثة المحمدية الحنيفة ، حين كان الشرق الأوسط مجمع الحضارات العالمية ، كانت تنتظم شعوبه دولة الفرس العريقة من شطره ، ودولة الروم البيزنطية من شطره الآخر ، بينما كانت بطون العرب المتبدية تضرب فى أحشاء شبه الجزيرة العربية أوزاعا ، تلغط بلهجات — وان انتسبت الى أرومة سامية واحدة — الا أنها تباينت فيما بينها ، حتى ليوشك بعضها أن ينبهم على البعض الآخر ، وعشائر الترك المغوليين تضطرب فى متاهات آسيا الوسطى أباديد ، وكلا العرب والترك ما برحوا رعاء رحل ، تمزقهم الاحن والشنآن والعصبيات أفلاذا ، ويتوزعهم الظعن والانتجاع مزقا أيدى سبا ، على فطرتهم القبلية البدائية ، قبائل مغمورة متلاحية متصارعة ، لاتنتظمها وحدة قومية وسياسية جامعة ولا تخضع لنظام ادارى رتيب ، وليس لها فى مضامير النشاط العلمى أو السياسى دولة ولا صولة ، وان دانت بالطاعة لكسرى أنوشروان شعوب أواسط آسيا فيما يلى السند ونهر سيحون ، حيث أظلتها أنماط من التنظيم السياسى المبتسر ، والا ما كان من قيام دويلات عربية صغيرة بأطراف بوادى شبه الجزيرة العربية تربطها بدولتى الروم والفرس أواصر التبعية السياسية ، كتلك التى قامت فى بادية الشام بنواحى حوران والبلقاء ووليها من قبل الروم آل جفنة وآل غسان ، وكامارة اللخميين فى الحيرة على الحدود العراقية وعلى مشارف الشام ، ثم مملكة المناذرة النصرانية التى قامت فى الحيرة وما تاخمها من عرب العراق حتى البحرين على الخليج الفارسى ، وكانتا تدينان بالطاعة لأكاسرة الفرس ، ثم الممالك التى قامت فى اليمن حيث ازدهرت مملكة سبأ منذ القرن الثامن قبل الميلاد ثم وليها قوم تبع الى أن آلت

الى بنى حمير من بعدهم ، ثم غزتها الحبشة ودانت لحكمها حتى أجلاها سيف بن ذى يزن بمعاونة الفرس الذين بسطوا عليها سلطانهم حتى حررها الاسلام من ربقتهم وضمها الى الدولة العربية الاسلامية .

***

على أن هذه المجتمعات السياسية العربية ـ من دول ودويلات ـ لم تقم لها قائمة الا فى أطراف البادية على مشارف الحضر بعيدا عن أعمائها وبنجوة من بطاح نجد وقفار الحجاز ، وما برح غالبيتها فى واقع الأمر امارات عميلة لم تجتمع لها مقومات الدول ذوات السيادة ، اذ لم يكن لها من السمات الدولية سوى ظلال النفوذ الأجنبى تغشاها وترين عليها كمظهر للتبعية السياسية لدولتى الروم والفرس اللتين اصطنعتاها ضمائم فى أكنافهما لحراسة تخومهما والمنافحة عنها دون غارات المعتدين من قبائل البدو التى تشنها ابتغاء السطو وانتهاب المغانم وتخطف الأسلاب ، أو الدفاع دون غزوات كل من الفرس والروم احداهما على الأخرى ، كلما احتدم بينهما الصراع واشتد بينهما التكالب والمنافسة .

وقد تقوم لبعض القبائل قائمة بما يتوفر لها من غلبة ومنعة ـ حينا ما ـ فتبسط سلطانها على ناحية من أقطار البادية لأمد قصير ، كما حدث من تسلط قبائل كندة على بنى أسد من المضرية بعض الحين ، وكان آخر من حكمهم من بنى كندة حجر أبو امرىء القيس رأس شعراء الجاهلية .

بيد أن هاتيك القبائل المسيطرة لم تخرج بذلك عن عزلتها السياسية أو طبيعتها البدوية ، ولم تبلغ فى أى من صورها مبلغ الممالك المنظمة ، وانما كان مناطها غزوات للسلب أو غارات للثأر ، تشنها القبائل من حين لآخر لا تستهدف من ورائها اقامة دولة حقيقة أو مجازا ، ولا تواكبها نظم سياسية رتيبة ، أو حضارة مزدهرة تؤثر عنها ، فهى لم تزل قبائل ممعنة فى البداوة ، ضاربة فى الأمية ، يحكمها العرف القبلى بتقاليده المتوارثة ؛ وان استقر المقام ببعضها فى بضع نواح متناثرة من شبه الجزيرة .

وهكذا كان عرب الحجاز فى جاهليتهم فى أعماق البادية ، على حال من البداوة لاتندرج بهم فى عداد الأمم المؤتلفة المتماسكة العرى المتحدة المقومات والمصالح والمناهج ، ينبثون فى تفاريق الصحراء أشتاتا فى قبائل متنافرة تهيم فى أعمائها حيثما توفر الكلأ والماء ، وتضرب فى مناكبها أنى طاب لها المرعى ، لاتربط بينها مصلحة مشتركة ولا تنتظمها ادارة موحدة ، بل انها على النقيض تتوزعها عصبيات متباينة المشارب ، بطونا وأفخاذا وعشائر ، تستبد بها وتتحكم فى حياتها ، وتنزع بها الحمية الغشوم الى النفرة والملاحاة والمصاولة ، وتتبدى كل عشيرة هيئة مستقلة ذات لهجة لغوية خاصة وان تكن

عربية الأرومة ، وتهيمن عليها تقاليد بدائيـة موروثة ، ويدينهـا عرف بدوى فطرى ، فلم تندمج قبائلهم فى وحدة جماعية تضمها دولة مستقرة ذات كيان اجتماعى وسياسى ٠

لذلك فانه لم تقم بينهم نظم ادارية اشترعت على أساس من التعاون الحر والصالح المشترك والتفكير المنطقى السليم ، تتولاها حـكومة مسئولة فى يدها مقاليد السلطة ٠

وحتى من استقر بهم المقام فى مدائن أسسوها محاطا للقوافل وأسواقا للتجارة أو مثابة للمناسك الدينية التى كانوا يعتنقونها ـ حيث تأتى لهم أن يمارسوا حياة متحضرة أو أدنى الى التحضر ـ بالمقايسة على حياة الظعن والمقام فى الخيام ـ فى مدن اطمأنت بهم الحياة فى أفيائها ، كما كان الشأن فى مكة ويثرب والطائف من مدن الحجاز ، ـ فقد كان يغلب عليها الأسـلوب القبلى ، وكانت الروابط الاجتماعية التى تجمعهم فى صعيدها مبناها التقاليد والأعراف القبلية ، فلا تسـودها حـكومة مسئولة نظيمة ذات سلطات مقومة تهيمن على مرافقها وتملك زمامها على النحو الذى عرفت به الحكومات المسئولة على مدى التاريخ ، وانما نشأت بالحجاز زعامات قبلية انعقدت فى مكة للسادة من قبائل قريش خاصة ٠

وقد ظل العرب فى أعماء شبه الجزيرة سادرين فيما يعمهون فيه من حياة بدائية بدوية تسـودها العصبيات المتلاحية والحـكم القبلى المستبد ، والفوضى اللغوية فى لهجاتها المتخالفة حتى بزغ الاسلام فى ربوعها فبدد ما يرين عليهم من غاشيات مدلهمة غلفت قلوبهم وبلبلت ألسنتهم ومزقت جمعهم ، وأضفى عليهم الاسلام من فيوضه النورانية الباهرة ما ألف بين قلوبهم فى وحدة اندماجية دينية ولغوية وادارية بلغ من عظم شأنها وسمو شأوها أن غيرت مجرى التاريخ فانطلقت فى مسارها على هدى واستقامة تثل العروش وتقوض الدول وتتهاوى تحت مواطئهـا أعرق التيجان تتداعى خائرة مستسلمة تدين لهـا بالطـاعة والاذعان والولاء ٠

الفصل الثانى

اللغة العربية

العوامل التى أثرت فى قوام اللغة العربية

تمهيد

لم تحتفظ أى من لغات العالم بمتنها نقيا خالصا من شوائب الغريب الدخيل على مدى تاريخها المديد أيا ما بلغت من الرقى والكمال ، الا أن تكون لغة بدائية منغلقة ومعزولة عن العالم فيما وراء تخومها ، وذلك لعمر الحق أمر جد عسير فى المجتمع الانسانى لأنه ضد طبيعة البشر ، والانسان مدنى بطبعه اجتماعى بطبيعته ، يألف ويؤلف ، ويتبادل المنافع ويتعاور المعارف والمعاملات الاجتماعية والسياسية .

فمن شأن الاختلاط سواء أكان سياسيا أم اجتماعيا ، أن يحدث تبادلا فى الأفكار وتلاقحا فى المقومات وتقارضا فى التعابير اللغوية حتى لتبدو أمشاجا يتفاوت مزاجها من لغة لأخرى تبعا لمدى ذلك الاختلاط ومبلغ الانفعال به والتفاعل معه ودرجة التقارب بين مختلف المقومات والأصول اللغوية والثقافية .

على أن العزلة المطلقة وان لم تثبت لشعب من الشعوب ـ والانسان مدنى بطبعه ـ فهى فى الشرق الأوسط أحرى بالانتفاء ، وفى أكنافه الوريفة عاشت أعرق الشعوب حضارة فى حركة دائبة وتفاعل مطرد ، وفى بوتقته انصهرت القيم الدولية والثقافات العالمية والمعالم القومية ، حتى ليوشك قوام الحضارات

التى نبتت فى رحابه أن يكون دولى السمات مختلط المعالم ، لكل من شعوبه فيها خط مقسوم ٠

ولقد كان قيام الدولة العربية الكبرى فى ظلال الاسلام الحدث الجلل فى تاريخ الشرق ، وكان لدويه رجع عميق صك أسماع الدنيا بله الشرق خاصة ، ودمغه بطابع مميز لم يزل باديا مخلدا ٠

وكان لزاما لبيان حالة اللغة العربية التى اصطنعتها تلك الدولة فى شئون الادارة العامة ، أن نبين العوامل والمؤثرات التى كيفت تلك اللغة فى محيطها البدوى التقليدى الى أن آل ميراثها الى الدولة العربية الناشئة ، كى يستبين فضل الاسلام على اللغة العربية تطويرا واثراء وكيف هيأ لها القوام السخى المرن الذى طوعها للنهوض بالأعباء الضليعة التى تطلبتها سياسة الدولة الفتية ، وريادتها لنهضة حضارية مميزة بالغة الرصانة والاحكام ٠

أولا ـ العوامل الداخلية

١ ـ حياة الرعى :

لقد كان طبيعيا أن تنشأ علاقات اجتماعية وطيدة فيما بين مختلف قبائل شبه الجزيرة العربية ، لما أن مناط الحياة فى البادية دوام الظعن والترحال انتجاعا للمرعى حيث الكلأ والماء ٠

فقد كانت موارد الماء فى متاهات القفار ملتقى القوافل فى عرض الصحراء فى غدوها ورواحها ، مناخا للمطايا ومراحا للسفار ، يستجمون فى أفيائها من وعثاء السفر ، ومحاطا لتموين القوافل بالماء والزاد للناس ثم للرواحل والأنعام فى مراتع الرعى ٠

ومن المألوف أن يصاحب هذه الحركة الدائبة اختلاط متصل وتعامل منتظم متشعب الدوافع والأهداف ٠

ولا جرم أن حياة الرعى فى مناشطها الضنينة توفر للرعاة فراغا وتبطلا يدفعان الى التماس الأسباب لتزجية ما يبتعثان من ملالة ٠

ثم ان البيئة الصحراوية بأديمها المبسوط حتى ملتقى الأفق ، وما يتخلل غضونه من نجاد ووهاد ، وما يفترشه من رمال عسجدية وما يعلوه من سماء لا زوردية وآفاق صافية وهدوء مطبق ، كل أولئك مزدرع خصب للخيال الطلق والأحاسيس الوجدانية الدفيقة ٠

فأما طرائق ازجاء الفراغ واشباع الخيال فقد كانت سبيله فنون التعبير والأناقة اللغوية التى اصطنعوها مصرفا لطاقاتهم الذهنية ٠

فان الاختلاف الى أماكن الانتجاع على فترات متعاقبة ومرأى ما يتخلف فيها من آثار الرحلات السابقة ـ من الدمن والأطلال ـ من شأنها أن توقظ فى النفس كوامن الأحاسيس وتدفعها الى اجترار ذكريات أثيرة ترتبط بهـا حين كانت ـ يوما ـ منازل عامرة بالصحاب والخلان ومراتع للهوى ومطارح للواعج الغرام ومراحا للسمر والمنادمة ، مما يستثير فى الوجدان ـ بمشهدها الدارس ـ خوالج النسيب والتشبيب والفخر والوصف ، وما اليها من الخواطر الوجدانية ٠

فأما فنون اللغة ـ كمجلى لما توحى به حياة الرعى من نشاط فكرى ـ فكان من أظهرها قرض الشعر ، ذلك أن الضرب فى أعماق الصحراء على ظهور الابل يتطلب استحثاثها على المسير بحداء موزون مقفى حتى يتوافق ايقاع نظمه مع خطوها الرتيب ويتسق مع تمايل الحداة على متونها ٠

ومن ثم رسخت ملكة الشعر فى صورة أراجيز قصار ثم فى صور متعددة من المطولات والقصيد ، وعلى غرارها كلف العربى بالسجع ، على نهج القافية ، يرصع به المنثور من كلامه ٠

٢ ـ احتراف التجارة :

لقد كانت التجارة الحرفة الشائعة ـ بعد الرعى ـ التى يمارسها العرب ، ينشطون لها ويلتمسون بها أسباب الرزق ٠

فكانوا يتبادلون المتاجرة فيما بينهم ، أو يحترفون نقل عروض التجارة بقوافل دائبة الحركة فى مفازات الصحراء وتفاريقها تجوب دروبها عبر أطرافها الى الأصقاع المتاخمة لها لحسابهم خاصة أو لحساب الشعوب المجاورة فيما وراء شبه الجزيرة العربية ٠ وكانت مكة ملتقى القوافل المتجهة الى اليمن جنوبا والى نجد والشام والحيرة شمالا ٠

ولا ريب أن كانت تلك الرحلات التجارية من دواعى الاختلاط بأواصر وثيقة مختلفة الأسباب والمناهج والأهداف ٠

فبالاضافة الى ما تحمله رحالهم من سلع ، كانوا يتناقلون الأخبار ويتبادلون المعاومات ، مما ضاعف من أغراض اللغة وأضاف اليها ثروة قيمة من المعانى الجديدة والأساليب الطارفة والألفاظ الجليبة ٠

٣ ـ أسواق العرب :

كانت للعرب فى أرجاء شبه الجزيرة أسـواق مشهودة يجتمعون فيهـا للتجارة ، وللاحتكام الى ذوى الرأى منهم يحكمونهم فيما يشجر بينهم من منازع وأقضية ، كما يتخذون من ساحاتها محافل لهم يعقدون فيها الندوات للمفاخرة والمنافرة ، ويعرضون على الملأ حصيلتهم من الثقافة الأدبية ومن اللسن والفصاحة بوجه خاص ٠

وكانت مواقيت انعقاد هذه الأسواق تستغرق أشهر العـام بصفة دورية ومتتابعة (١) فيعقد سوق دومة الجندل فى ربيع الأول ، وسوق هجر بالبحرين فى ربيع الآخر ، وسوق عمان فى البحرين أيضا فى جمادى الأولى ، وسوق المشقر بالبحرين كذلك فى جمادى الآخرة ، وسوق صحار فى الثلث الأول من رجب ، وسوق حباشة فى رجب أيضا ، وسوق الشحر على ساحل البحر بين عمـان وعدن فى شعبان ، وسوق عدن أبين وتمكث الى أيام من رمضان ـ وهى جزيرة باليمن أقام بهـا أبين فنسبت اليه ٠ ثم سـوق صنعاء وتستمر طوال النصـف الثانى من رمضان ، ثم سوق عكاظ ـ وهى أكبر أسواق العرب ـ وتقع فى واد بين نخلة والطائف ، وتعقد فى ذى القعدة أو فى شوال ، وسوق حضرموت فى النصف من ذى القعـدة ، وسوق ذى المجـاز ـ الى جانب عرفة ـ فى أول ذى الحجة ، وسوق مجنة ـ بالقرب من مكة ـ قرب أيام موسم الحج ، وأخيرا سوق حجر ، وتعقد فى يوم عاشوراء وتستمر الى آخر المحرم ٠

وكانت أعظم هذه الأسواق وأجلها شأنا من الناحية الاجتماعية عكـاظ والمجنة وذو المجاز ٠

وكان العرب فى هذه الأسواق يتبايعون السلع ، ويتناشدون الشعر فى مفاخرات ومنافرات ومساجلات مأثورة ، وبذلك غـدت ساحاتها محكا نشيطا لشتى اللهجات العربية والفنون اللغوية بعامة ٠

كما كانت للعرب مجتمعات مشهودة لمحض الأنس والسمر ، أو للمشاورة وتبـادل الرأى ، أو التماسـا للعظة والحـكمة ، أو لعقـد الأحلاف وابرام المعاهدات (٢) ٠

---

(١) راجع كتاب بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب تأليف السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى الطبعة الثانية سنة ١٩٢٤ الجزء الأول من صفحة ٢٦٤ الى ٢٧٠ ٠

(٢) كتاب بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ـ السـابق الاشارة اليه ـ الجزء الأول صفحة ٢٧٠ الى ٢٧٨ ٠

٤ ـ الحج الى الكعبة :

كانت مكة ـ لمقام الكعبة المشرفة فيها ـ مقصد القبائل العربية لأداء مناسك الحج من قبل ظهور الاسلام ، فما برحت الكعبة ـ بيت الله الحرام ـ مزارا مقدسا عند العرب ومثابة للحج منذ أن رفع قواعدها سيدنا ابراهيم الخليل وولده اسماعيل ، حتى بعد أن زلت مداركهم وجنحت عقيدتهم فانحرفوا الى عبادة الأوثان واتخذوا الكعبة بيتا لأصنامهم حيث يعكفون على عبادتها ، ومن ثم كانت مكة مهبط قبائلهم ومقصد حجيجهم ، وغدت البوتقة التى تنصهر فيها الآثار اللغوية المختلفة ، سواء أكانت هذه الآثار حصيلة الاختلاط الخارجى فيما وراء بلاد العرب ، أم كانت نتيجة العلاقات المحلية بين قبائل العرب ٠

فكانت أفواج العرب تهرع الى صعيدها مهطعة من فجاج شبه الجزيرة وأطرافها فى موسم الحج من كل عام ـ يتقارض شعراؤهم فرائد القصيد ، ويتساجل خطباؤهم وبلغاؤهم فى مناظرات عامة يعرضون فيها ما تفتقت عنه قرائحهم من أفكار ثاقبة ، وحكم بالغة ، وأخيلة رائعة ، ويتعاورون الألفاظ الفحلة الجزلة والعبارات الطلية المنمقة ، ويعلقون المطولات المختارة من قصائدهم على أستار الكعبة تكريما للسن المقاول من رجالاتهم ـ وبذلك عرفت تلك القصائد بالمعلقات ٠

كل ذلك ـ دون ريب ـ كان معوانا على الاقتباس والمحاكاة وترشيد اللغة وتبادل ما اكتسبه العرب من فنون الشعر والأدب ، وذيوع الألفاظ الجليبة التى دلفت الى العربية من طرائق البادية ومشارفها بشتى الوسائل ومختلف السبل ٠

وكانت قريش فى رحاب الكعبة مثابة الحج ، واسطة العقد من المجتمع العربى تتصدر محافله وتختلف اليها القبائل من كل صوب تعنو لها وتدين لها بالاكبار والاجلال اذ كانت تستأثر بمناصب شرفية يتولاها أقطابها ويتميزون بها عن سائر العرب ، كسدانة البيت الحرام أو الحجابة حيث تعهد اليهم مفاتيح الكعبة ، والسقاية أى سقاية من يفدون الى مكة للحج ماء عذبا أو نبيذ التمر ، كما كانت لهم الرفادة أى اطعام الحجيج فى موسم الحج اكراما لهم لأنهم ضيوف الله ، وكانت لقريش ـ الى ذلك ـ الندوة أى رئاسة ما يعقد بمكة من اجتماعات فى دار الندوة ٠

وكان العرب فى توافدهم على مكة للحج يتحاكمون الى بنى قريش فيما قد يشجر بينهم أو يختلفون فيه ٠

وهكذا أتيحت للقرشيين مختلف الفرص الطيعة للتعامل مع قبائل العرب ، وتأتى لهم أن يتخيروا من كلام العرب ومأثوراتهم وأشعارهم أعذب لغاتهم وأرق لهجاتهم وأصفاها ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلائفهم التى طبعوا

عليها فصاروا بذلك أفصح العرب ، وغدت اللهجة القرشية صيغة مبدئية للغة القومية للعرب حتى تأتى لها أن تستكمل مقوماتها بعد ظهور الاسلام .

***

من هذه الطرائق المتشعبة وعن تلك العناصر المتباينة ، تسربت الى اللغة العربية طائفة من الكلمات الدخيلة ، تداولها اللسان العربى أمدا طويلا ، وطوعها لنطقه ومخارج حروفه حتى تكيفت على نمطه ، وهضمها الطبع العربى وخلع عليها اهابه ، وأجرى عليها ما يجرى على الكلمات العربية الصحيحة من قواعد الصرف والاشتقاق حتى لتوشك أن تفتعل لها أصالة عربية فى متن اللغة الصميم .

ثانيا ـ العوامل الخارجية

١ ـ العلاقات السياسية :

لم يكن العرب فى حياتهم البدوية قابعين فى شعاب الصحراء المترامية الأطراف منطوين على أنفسهم فى حالة من القصور الذاتى تفضى بهم الى الجمود المطبق .

ولم تبلغ بهم العزلة السياسية حد الاحتباس عن العالم والقطيعة للشعوب المتمدينة من حولهم ، وانما كان موقع بلادهم وسيطا بين الدول العريقة التى أخذت بنواصى العالم المتحضر حينذاك ، حيث تطل باديتهم على مشارفها ومفاتح الوصول الى عمقها ـ مدعاة لقيام نوع من التواصل السياسى بين العرب وبين الدول المحيطة بهم أملته ضرورات أمنها يستهدف استغلال ما يتمتع به العرب من ميزات حربية فى الحفاظ على حدودها من العدوان .

وتحقيقا لهذا الهدف فقد درجت السياسة التقليدية للأحباش والفرس والروم على اصطناع امارات عربية على مشارف بلادهم تدين لهم بالولاء والتبعية لتضطلع بمهمة التابع المطيع والحارس اليقظ الأمين يتدرعون بها فتتصدى عنهم للغزاة وتؤازر جيوشهم بالمقاتلين الأشداء حين اشتعال الحرب .

ففى حوران والبلقاء ببادية الشام ، قامت امارة عربية تدين بالطاعة لامبراطور الروم ، وليها من قبله آل جفنة ثم آل غسان ، وظلت هذه الامارة قائمة منذ أواخر القرن الخامس الميلادى حتى فتحها المسلمون فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ومن أشهر أمرائها ـ أو ملوكها كما يحلو لهم أن يدعوا ـ الحارث بن جبلة الذى عينه الامبراطور جوستنيان فى عام ٥٦٣ للميلاد ولقبه بالبطريق والفبلارك .

ومن ناحية أخرى فقد قامت فى الحيرة على مشارف الشام وحدود العراق غربى نهر الفرات ـ امارة اللخميين منذ عام ٢٦٨ الميلادى ، ثم تلتهم فيها مملكة المناذرة النصرانية ، وكانت تضـــم الحيرة وما جاورها من عرب العراق حتى البحرين على الخليج الفارسى ٠

وكانت هذه الامارة تدين بالولاء لأكاسرة الفرس منذ ولاية عمرو بن عدى اللخمى فى عهد سابور الأول بن اردشير ملك فارس فى القرن الثالث الميلادى ـ الى أن دانت مملكة المناذرة لحكم المسلمين على يد القائد خالد بن الوليد ٠

وفى أقصى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية قامت مملكة اليمن ، وكانت أهم الوحدات السياسية فى بلاد العرب ، وقد ازدهرت مملكة سبأ فى ربوعها فى القرن الثـامن قبل الميلاد بعد انقراض دولة معين ، وسميت باسم مؤسسها الأول عبد شمس سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وظلت قائمة زهاء تسعة قرون ، وكانت ملكتها بلقيس على صلة بسيدنا سليمان الحكيم ملك اليهود فى بلاد كنعان ، وقد اعتنقت الدين اليهودى على يديه بعد أن كانت تعبد الشمس ، ومن ثم بدأ الدين اليهودى يغزو بلاد اليمن ٠

وظلت مملكة اليمن مزدهرة حتى أخنى عليها الدهر وتخرمها الاضمحلال ، ثم قضى عليها ما أصابها من دمار ماحق على أثر انهيار السد الذى كان قائما فى عاصمتها مأرب (١) ـ شمال شرقى صنعاء ـ واجتاح المدينة فتفرق أهلها فى شعاب الصحراء شمالا لواذا من الخراب والقحط الى أن استتب الأمر فيها لبنى حمير فأسسوا بها مملكتهم التى استمرت أكثر من ستة قرون امتدت من أواخر القرن الثانى قبل الميـــلاد حتى مشارف القرن السادس الميلادى ، حين غزاها ملك الحبشة المسيحى فى عام ٥٢٥ للميلاد بجيش يقوده أبرهة بن الأشرم بايعاز من جستنيان قيصر الروم ـ انتقاما لنصارى اليمن الذين أمر ذو نواس ـ ملك اليمن اليهودى ـ بالقائهم فى أخدود احتفره وأضرم فيه النـار لرفضهم اعتناق دينه اليهودى (٢) ٠

فلما أن انهزم ذو نواس ويئس من المقـــاومة انتحر غـرقا ، وخضعت اليمن لحكم الحبشة منذ حينذاك ، ووليها من قبـل ملك الحبشـة قائده أبرهة ابن الأشرم ٠

وتملك الغرور أبرهة فحاول غزو مكة بجيش لجب يتقدمه فيل ضخم يبتغى هدم الكعبة حتى ينصرف العرب عن مكة ويستبدل بها مدينة صنعاء

---

(١) كانت مدينة مأرب تسمى أيضا سبأ ، كما كان اسم سبأ يطلق أيضـــا على سكانها وما حولها ٠

(٢) أشار القرآن الكريم الى هذا الحدث فى سورة البروج ٠

اليمنية مجتمعا للعرب وسوقا نافقة لتجارتهم ومعاملاتهم ، وقد شيد بها كنيسة القليس بغية حمل العرب على الحج اليها بديلا عن الكعبة التى اعتزم تدميرها لتنفرد كنيسة القليس بالقداسة ، غير أن الله سبحانه وتعالى أحبط محاولته انقاذا للكعبة المشرفة بيته الحرام فأهلكه ومن معه من الأجناد بطير أبابيل أرسلها عليهم ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول (١) ٠

وقد أصبحت هذه الغزوة الفاشلة حدثا هاما فى تاريخ العرب حتى جعلوا زمانها ميقاتا يؤرخون به ، سموه عام الفيل ، وفى هذا العام ولد النبى محمد صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة ٠

وقد دانت اليمن لحكم الأحباش حينا من الدهر الى أن طردهم سيف بن ذى يزن بمعاونة الفرس الذين ما لبثوا أن حلوا محل الأحباش فى فرض سلطانهم عليها حتى ظهور الاسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى ، حيث أسلم بازان عامل كسرى على اليمن ، وكان اسلامه نقطة ارتكاز قوية للاسلام فى جنوب شبه جزيرة العرب (٢) ٠

٢ ـ العلاقات التجارية :

لم يلزم العرب فى جاهليتهم مواطنهم فى شبه الجزيرة متطامنين فى حالة استرخاء وتبطل عن قناعة واكتفاء ذاتى ، وانما كانت شعاب البادية تنبض بالحياة الدؤوب وتموج بالحركة الحثيثة ، فلا تفتأ قوافلهم التجارية تجوب التخوم الى الشام والعراق حتى أطراف الهند عبر البادية ، لما كانت لهم علاقات تجارية نشيطة مع مصر يرجع تاريخها الى ما قبل ميلاد السيد المسيح توثقها طرائق منتظمة برا عبر سيناء وبحرا عبر البحر الأحمر ـ بحر القلزم حينذاك (٣) ٠

ومن المعروف أن عمرو بن العاص وفد الى مصر للتجارة من قبل الفتح الاسلامى ، وزار فى ترحاله اقليم الدلتا ومدينة الاسكندرية (٤) ٠

وكانت بلاد اليمن محطا تجاريا بالغ الأهمية ، ومنذ عهد مملكة سبأ كانت تنتهى اليها وتصدر منها السفن التجارية الوافدة من الهند والحبشة عبر ميناءى

(١) أشار القرآن الكريم الى هذه الموقعة فى سورة الفيل ـ والأبابيل أى المتفرقة التى يتبع بعضها بعضا ، والسجيل الطين ، والعصف المأكول الزرع الذى أكلته الدواب ورائثه فيبس وتفرقت أجزاؤه ٠

(٢) كتاب « حياة محمد » تاليف الدكتور محمد حسين هيكل صفحة ٤٠٠ و ٤٠١ ٠

(٣) كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام تاليف الدكتور جواد على ـ طبع المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٥٠ الجزء الثامن صفحة ٦٧ و ٦٨ ٠

(٤) كتاب الولاة والقضاة تاليف أبى عمر محمد بن يوسف الكندى طبع بيروت سنة ١٩٠٨ صفحة ٦ و ٧ ٠